أثر المرجعية الثقافية للمرأة المُفسّرة في تناول خطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ووصاياه

م.م.هند كامل خضير الإبراهيمي

قسم اللغة العربية / كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ذي قار؛ العراق

hindkamel742@gmail.com

مجلة نبيئنا
Journal Homepage: http://nabiyuna.com
ISSN: 2789-4290 (Print) ISSN 2789-4304 (Online)

أثر المرجعية الثقافية للمرأة المُفسّرة في تناول خطب النبي الأكرم ﷺ ووصاياه

هند كامل خضير الإبراهيمي[١]

١ – جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية ؛ العراق

hindkamel742@gmail.com

ماجستير في الادب والنقد الثقافي/ مدرس مساعد

تاريخ التسلّم : ٤/ ٧/ ٢٠٢٣
تاريخ القبول : ٢٦/ ٩/ ٢٠٢٣
تاريخ النشـر : ١/ ١٢/ ٢٠٢٣
السنة(٣)–المجلد(٣)
العدد(٦)
جمادي الأول ١٤٤٥ هـ
كانون الأول ٢٠٢٣م
DOI: 10.55568/n.v3i6.93-117

CC BY NC

الملخص :

إنَّ الاهتمام بالسيرة النبوية هو من أوليات الحيز التفسيري للنصّ؛ لأن السيرة تُشكّل خلفية ثقافية تالية للقرآن الكريم عند طالب التفسير. ومن ثم فهما يشكلان حلقتي وصل في مرجعيات النصّ، فالسيرة شارحة للنصّ وموضّحة له، والقُرآن يعد المصدر الأول، بل هو أعلى درجات الوثاقة في تسجيل السيرة النبوية الشريفة من حيث معاصرته للحدث أولاً وصياغته الأهيّة ثانياً.

وقد تجذّر الاهتمام النسوي بتفسير النصّ الكريم منذ عصر التنزيل، فوجدت لهن بصمات في عهد الرسول وبعده ، وقد تجسّدت هذهِ البصمات بدءاً من السّيدة خديجة والسّيدة فاطمة عليهما السلام فضلاً عن الصحابيات وزوجات الرسول حتى يومنا هذا الذي صدحت فيه أصوات نسائية اهتممنَ بالكتاب الكريم ، فنظرْنَ في النصّ المُنزّل، والسبب الذي نزل فيه . ومن المُفسّرات

اللائـي شـغلنَ أقلامهـن بتفسـير القُـرآن، واهتـدت إليهـن الدراسـة في الوقـوف عـلى السـيرة النبويـة ، المُفـسّرة عائشـة عبـد الرحمـن ، كريـمان حمـزة، زينـب الغـزالي ، حنـان لحـام ، نـصرت أمـين ، ماجـدة فـارس الشـمري ، نوريـة نـاصر ، فوقفـن اتّجـاه نـص السـيرة قـولاً وفعـلاً مـن زوايـا تشريعيّـة، وتربويـة ، وفقهيـة . وضمـن هـذهِ السّـياقات جـاء تركيـز الدراسـة عـلى السّـيرة النبويـة الشريفـة بـاب الخطـب والوصايـا إذ جعلـن المرجعيّـة الأسـاس في القـراءة هـي القُـرآن الكريـم ، مـع الاسـتناد إلى مرجعيـات خارجيـة مثـل اللغـة ، المجتمـع ، الواقـع ، التاريـخ وفضـلاً عـن النقـولات النبويـة نفسـها مـن السـنة كالحديـث والروايـات .

الكلـمات المفتاحيـة: المرجعيـة، المفـسّرة، نصـوص السـيرة، الـتراث التفسـيري، آيـات السـيرة، المـرأة المفـسرة.

المقدّمــة

تُجسّد السّيرة النبويّة الشريفة إطروحة مثال، بالنظر إلى شخص صاحبها الكريم وما تمثله تلك السّيرة في الآفاق الدنيويّة من النبل والقيم، ومن حيث صياغتها الأهيّة، إذْ وضعها الخطاب القُرآني وسيلة لحمل الهمّ الرسالي التشريعي والعقدي والتربوي؛ لذا حين يأتي المفسّر عليها ضمن السّياق القُرآني، يرى فيها الحكم والتفصيل الشرعي في بيان كلام الله تعالى .

والمرأة المفسّرة من باب موقف تدبّرها للآي الكريم وتفحص آياته بالتفسير، وقفت على سيرة الرسول الأعظم ﷺ وما أثر عنه من قول أو خطبة ووصية فاستعرضت نصّ السّيرة القُرآنيّ من خلال السّيرة نفسها سواء بالنقل أو من خلال من رواه الصحابة أو من خلال ما أثبته المفسّرون. لذا جاء البحث ليسلط الضوء على الأثر النبوي في تفسير المرأة، وتتبع السّيرة في تفسيرها، ومن ثم استقراء مرجعياتها – المفسّرة- الثقافية في توظيف آثار السّيرة النبويّة الشريفة وطرحها ضمن تفسير النصّ القُرآنيّ. من هنا تناول البحث تلك المرجعيّات بحسب الوفرة ابتداءً بالغالب منها، وبحسب طبيعة المرجعيّة نفسها. وبهذا جاء تقسيمها على أربعة مباحث، كان الأول بعنوان المرجعيات الاجتماعية وفيه وقفت المفسّرة على نص السيرة ؛ بوصف أن الرسول الأكرم ﷺ قدم المواقف الإنسانية في أبهى صور، فلمست ألطافه شؤون المسلمين كافة المرأة والرجل والطفل في أفراحهم وأحزانهم على مختلف معاملاتهم اليومية. أمّا المبحث الثاني فكان بعنوان المرجعيات النّقليّة كان نقلاً عن وصية الرسول ﷺأو خطبته في تفسير نصّ السّيرة القرآني، وجسّد نقلاً مفسّراً وجامعاً لكل شؤون المسلمين التي تعرّض لها القُرآن بالقصص والخطاب، وتعايش معها رسول الله ﷺ، أمّا المبحث الثالث فجاء بعنوان المرجعيات التاريخيّة تمثل في نقل خطب الرسول ﷺالتي قالها في مغازيه أو معاركه، وكان تضمينها يأتي بشكل سياقات السرد، فبعض المفسّرات قد أرودتها بكتاب منعزل عن التفسيرات، وقد كان في البحث المطروح نصيب من تلك النقولات التاريخية. في حين جاء المبحث الأخير بعنوان المرجعيّات البيانية، وكان تجسّد المرجعية فيها يعود

إلى المنهج البياني البلاغي في ورود اللفظة في قول الرسول ﷺ أو وصيته .

ومن الجدير بالذكر، ونظراً لأهميّة الدراسة لكونها تجسّد التفاتة جديدة في موضوع التفسير لاسيما أنَّ التفسير صادر من امرأة؛ فقد تعذر حصول بعض التفاسير النسوية في العراق واضطررت إلى البحث عنها وطلبها من خارج العراق. وألفت إلى أن التعدد في المباحث هو إبراز ذلك الأثر الذي بذلته المرأة من بيان كلام الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ، وسلكت سبيل الاختصار في طرح النصّوص؛ لكون البحث مقيّداً بصفحات محدّدة، وإلا فالموضوع جدير بأن يكون رسالة أكاديمية كي تستكمل الكثير ممّا فات من الجزئيات والآيات التي لم يسلطْ عليها الضوء في البحث.

وأخيراً الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم محمدﷺ وعلى اهل بيته الطيبين الطاهرين.

التمهيد

إنّ دراسة المرجعيات الثقافية هي بحث في الخلفيات التي يستند إليهاالنصّ والكاتب معاً، ومن ثم البحث في المحرّكات التي يتأسّس عليها . فكلّ نصّ محكوم بمرجعياته بصورة مطلقة لا ينفك منها، وعليه فالمرجع بمعناه العام، هو الرجوع والعودة للأصل الثقافي بما يتضمنّه من علوم ومعارف وآداب وغيرها ؛ لأجل تعرّف آيديولوجياته المتّخذة . ومن هنا فإن كُلّ ثقافة بها حاجة إلى مرجعيّة ؛ كي يؤسّس وجودها قيمة ومعنى.

إنَّ السّيرة النبوية الشريفة في الأصل، تمثّل مرجعيّة ثقافية دينيّة يستمد منها الدستور الإسلامي فكره ومنهجه، ومن ثمَّ فهي مرجعيّة الفرد المسلم في فقه السلوك والمعاملة. واصطحاب السيرة لهذا الاعتبار؛ بوصفها مصداقاً للمصدر الإلهيّ، فالوقائع السلوكية لسيرة النبي ﷺبمجموعها هي آية من آيات الله عزّوجلّ ؛ لذا تعدُّ السيرة النبوية مصدراً من مصادر الوثاقة بعد القُرآن الكريم في توثيق التاريخ الإسلامي خاصّة والبشري عامّة . وعليه فنصّ السّيرة له الحاكمية على المصادر الأُخرى بالاستناد إلى هذهِ المزيّة، أي من جهة الوثاقة .

ممّا لاشكّ فيه. وبكل المقاييس الدينية والتاريخية يعدُّ القُرآن الكريم المصدر الأول والأهم لتوثيق السّيرة النبويّة؛ لاعتبارات مهمّة، منها :الصيغة الدينيّة بأحداث السّيرة النبوية الشريفة؛ لكونها جاءت ضمن خطاب سماوي -إلهيّ-، والشهادة المحسوسة للأحداث بوصف القُرآن الكريم معاصرًا لأحداث السّيرة . ومن هنا قيل في مرجعيّتهاكل ما حكم به النبي فهو ممّا فهمه من القُرآن [١] * .

وبما أن السّيرة النبوية الشريفة - كما يعرّفها الباحثون- الأحداث المتعلّقة بحياة الرسول منذ

١ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القُرآن العظيم والسبع المثاني، ج٥-٦، ص٣٥٧ .
* نقله عن الشافعي، وقد نقلته الكثير من المفسّرين كابن كثير وغيرهم.

مولده حتى انتقاله إلى الله تعالى . فالمفسّر للنص القُرآني ينخرط ضمن تفسيره بالمرور بأحداث السّيرة استناداً إلى معطيات يستمدّها من النصّ الكريم، وهذا يعني أن حيز السيرة والمغازي في الخطاب القُرآني يشغل مساحة كبيرة جدّا، إذْبلغ ٢٩٥٠ آية بما يعادل ٤٨,٩ ٪ من إجمالي آيات القرآن الكريم، الأمر الذي يؤكد أهمية موضوعاتها وقضاياها في بناء صرح الدولة الإسلامية[٢] .

وانطلاقاً من المنظومة المعرفية التي يحملها النصّ الكريم، بوصف القُرآن منهجًا يتجسّد في حياة الفرد المسلم سلوكاً قوليّاً وفعليّاً، فهو الرسالة السماوية التي ختمها الله تعالى على صدر نبيه المصطفى محمد ﷺ . من هنا انبرت المرأة لتأخذ دورها العملي في قبال نظيرها الرجل ؛بوصفها جزءاً أساسياً من شريحة المجتمع الإسلامي؛ كي تضعَ بصمتها الأنثويّة في تفسير القُرآن الكريم؛ بوصفه جزءاً من الشريعة الإسلامية ؛ولكي تنتهج بهِ قراءة ووجهة نظر نسوية علمية استخلصتها بالنظر فيه من نصوص الحديث والروايات الواردة عن الرسول محمد ﷺ ، فضلاً عن التفاسير التي اعتمدتها في تعزيز رأيها وقراءاتها للنصّ الكريم.

وحينما نريد أنْ نعرّجَ بالذكر على تاريخ المرأة في مضمار التفسير لنصّوص القُرآن لاسيّما السيرة النبوية الشريفة، يخرج أمامنا المثال الزهرائي، لاسيّما في خطابها مع القوم،المعروف بـ خطبة فدك، وخطابها لنساء الأنصار،عندما تعرّضت لسيرة محمد ﷺ بوصفه رسولاً للأمة الإسلامية، فقد ضمّنت قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(التوبة: ١٢٨)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة: ٥٠، انتهجت فيها تفسيراً للقرآن لطرح محاججتها في مسائل تعرّضت فيها للمسيرة المحمديّة النبوية. وغيرها من النصوص القُرآنيّة التي ضمّنت تفسيراً للسّيرة النبوية الشريفة، إذْ سلكت منهجاً خاصّاً في طرح السيرة تعتمد فيه على الجمع بين الآيات في الموضوع الواحد ومن ثم إظهار تساوقه وانسجامه مع القُرآن الكريم، وعليه فسّرت نصوص السيرة النبوية الشريفة من خلال القُرآن الكريم، وبالعكس أيضاً .

٢ الزايدي؛ خالد، علم المغازي يحظى باهتمام باحثي السيرة النبوية،المدينة المنورة، مقال نت، الرياض،الأربعاء ١٢محرّم، ١٤٤١ هـ، ١١ سبتمبر، ٢٠١٩ هـ.

ومن التجارب النسائية اليوم مع نصوص السيرة النبوية الشريفة خاصّة، والقُرآن الكريم، التي سيسوقها البحث هنا انموذجاً، التجربة التفسيرية النسائيةعائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ» في كتابها التفسير البياني للقرآن الكريم، واستكملت التجربة التفسيريّة بعد ذلك الداعيّة الإسلامية زينب الغزالي الجبيلي، إذْ صدر لها عام ١٩٩٤ تفسير بعنوان نظرات في كتاب الله ، وهناك تفسير عرف بـ التفسير الخازن يعود لمؤلفته الاصفهانية نصرت أمين .

ومن الإضافة النسوية لعالم التفسير، تفسير يعود لداعية ولوجه إعلامي فاطمة كريمان حمزة يحمل عنوان اللؤلؤ والمرجان في تفسير القُرآن، إذ فسرت فيه القُرآن كاملاً، كما أنّ هناك تجارب تفسيرية حديثة نالت من القُرآن شرفاً في الوقوف على آياته وتفسيرها منها التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن للمفُسّرة ماجدة فارس الشمري الذي سلكت فيه تفسير بعض السور من سورة الفاتحة حتى سورة النحل في ثمانية أجزاء.

وتعدّدت التجارب النسائية في إثراء المعرفة القُرآنية خاصة والإسلامية عامة، فظهر حديثاً تفسير الداعيةنائلة صبري هاشم الموسوم المبصر لنور القُرآن وقد اعتمدت منهجاً يمزج ما بين تفسير القُرآن بالقُرآن والتفسير بالمأثور .

وعثرنا على تجربة نسائية حديثة انتهجت البساطة في الطرح من أجل إيصال المفاهيم والمقاصد القُرآنية لكل مسلم، وهوالتفسير الواضح اليسير لمؤلفته بدرية ناصر يقع في جزأين ويُعدّ تفسيراً كاملاً أيضاً.

فراحت حركة التفسير النسوي تقطف ثمار القُرآن الكريم، يتدبرن آياته ويطفن في آفاقه على وفق المعطيات المعرفية المتوافرة بين أيديهن، ولاسيّما الإرث النبوي الذي سطره الخطاب القُرآني، فكانت لهن وقفات أُخرى غير التفسير اتّجاه السّيرة النبوية عرّجن عليها بالسير على تفاصيل وجزئيات دقيقية للحياة الاجتماعية والعلو الأخلاقي للرسول محمد ﷺ . فالمفسّرة كريمان حمزة

كثيراً ماوظّفت نماذج من السّيرة المحمّدية مثالاً لرحابة الدين الإسلامي في قبال الديانات الأخرى، فكثيراً ما استندت في تعليقها على بعض الآيات التي تختصّ بالضرب أو الرق أو الإرث على سيرة الرسول ﷺ بوصفه مثالاً رفيعًا في قبال قوانين الأديان الأخرى. وتناولت المغازي في كتاب منفصل أسمته سيد الخلق . كما أن المفسّرة حنان لحّام ألفت كتاباً في السيرة بعنوان هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي ، إذْ علّقت في مقدّمته على سبب تأليفه، قائلة: ففي السيرة مواقف سننيَّة لم تأخذ حقَّها من التأمُّل والدراسة لا تقل عظمة عن الغزوات ولا تأثيراً من المعجزات ... مواقف تمنيت أن يكتب فيها من هو أكثر علماً مني وأعمق تحليلاً [٣] ، وكانت لهن وقفات مع الكثير من نصّوص السّيرة النبويّة الشريفة على مختلف الجوانب يمكن تناولها فيما يلي من البحث.

٣ لحّام، هدي السّيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، ١٥ .

المبحث الأول

المرجعيات الاجتماعية

إذْ سعت المرأة المفسّرة في إطار هذهِ المرجعيّة إلى تمثيل السيرة النبوية الشريفة من حيث هي سمة تكوينية لخطاب المسلم بل الفرد الإنساني، ومن ثم فهي محصلة لسلوك المسلم؛ بوصفها أصولاً سردية معلومة إن لم تكن موحى بها من الله عزّوجلّ، ومن ثم فهي تحمل المصدر الإلهي، وعليه تُشكّل بادرة طريق الإنسان المؤمن من حيث إنَّها تشمل كُلّ مناحي حياته من المعاملة والعبادة .

والفرد المنتمي للهوية الإسلامية يلزم أن يتصف بالسجايا المحمودة، وشخصية النبي محمّد ﷺ جسّدت المثال الأعلى الذي باهى الله تعالى به أمّم الأرضين بل ملكوت سماواته، فحاكى الخطاب القُرآني تلك السجايا والصفات احتفاءً واقتداءً بها. ومفسّر النصّ قد يحكم على بعض المواقف التي تتخللها مضامين قُرآنيّة أو قصص الأنبياء وأمّمهم؛ مستغلاً بذلك المسيرة المحمّدية أنموذجاً. من ذلك ما تعاطت معه المُفسّرة ماجدة فارس الشمري من سيرة الرسول الأكرم ﷺ في خطبه ووصاياه؛ كونهما يُجسدان جلّ الجوانب الإنسانية ومنها الاجتماعية، فعرضت لسيرة الرسول ﷺ في نصّ يُحاكي موقف للنبي شعيب ﷺ مع قومه، إذْ اتّخذتها مضامين اجتماعية معطاة. من خلال قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود: ٨٧) [٤]،وممّا لا شكّ فيه أنَّ عناية القُرآن الكريم بقصص الأنبياء كان من أجل الهدف العقدي والتربوي خاصّة دون الهدف التشريعي في حين جاءت عنايته بسيرة الرسول محمّد ﷺ لخدمة الأهداف الثلاثة [٥] .

من هنا كان إدراج المُفسّرة للسيرة النبويّة الشريفة لتستوحي منها -بالدرجة الأولى- الهدف التربوي، فتناولت هذا النصّ القُرآنيّ في ضوء خطب الرسول محمد ﷺ وأقواله،لاسيّما في قوله تعالى:أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ، إذْ انطلقت من مرجعيّة قراءة النصّ بما هو محصلة

٤ الشمري، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، ج٦، ٤٦٦ .

٥ البدري، سامي السّيرة النبويّة، ٣٠ .

لثقافة نسقيّة راسخة ومن متبنيات ثقافة جزيرة العرب، فالنصّوص التي أوردتها هي على اتفاق واحد في الموضوع، فأوردت نصّاً من خطبة للرسول ﷺ في حجة الوداع قوله: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ ربَّكم واحِدٌ، وإنَّ ربكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، كلكم لآدم وآدم من تراب، إنَّ أكرَمكمْ عند الله أتْقاكُمْ، ليس لِعربِيٍّ فضل على عجَمِيٍّ إلَّا بالتَّقوَى ... [٦]، وقوله ﷺ أيضاً:فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، اللهُمَّ اشْهَدْ [٧]، ثم ختمت معرض استشهادها بقوله ﷺ : أَلَا وإنَّ كلَّ رِبًا في الجاهليَّةِ موضوعٌ، لكم رُؤوسُ أموالِكم تأخُذوا أُصولَ،لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون [٨]، فمرجعية المفسّرة بلا شكّ عندما أوردت هذهِ النصوص هي المرجعيّة الإسلامية – النصّ القُرآنيّ والنبويّ – وتتضمن تصورّاً عامّاً عن الإنسان دون تحديد بدرجة التحضّر أو اللون أو اللغة؛ لذا كانت مرجعيّة خطب الرسول ﷺمن تلك الثقافة السماويّة، ومن ثم فإن السيرة النبوية الشريفة تمثّل مرجعيّة صيانية أنيطت بها مسؤولية تنظيم الحياة البشرية، وهذهِ القراءة ضمنتّها أيضاً المفسّرةزينب الغزالي إذْ رأتْ أنَّ القُرآن ما نزل على رسول الله ﷺإلّا ليكون دستوراً لحياة البشرية إلى يوم القيامة﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه ﴾(البقرة: ٢١٣) [٩] وعليه فالوصف بالجاهليّة – في طرح المفسّرة ماجدة الشمري – إشارة إلى التوحش والبدائية إذْ كان النبي محمد ﷺفي سياق المواجهات الجاهلية المناوئة بالظهور يعيد ترتيب نمط العلاقات السائدة بين الجماعات بحسب المنطق القُرآني. كما أن المفُسّرة تسوق حديثاً نبوياً تدعم به ما أدرج من نصوص الخطب، بأنّ رسول الله ﷺلعن من يضرّ مسلماً أو يمكر به، بقوله ﷺ: المكر والخديعة في النار [١٠] .

إنّ هذا المضمون المؤاخاة بين الجماعة المسلمة، أوردته المُفسّرة حنان لحام في حديثها عن الأطر

٦ الشمري، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، ج٦، ٤٦٧ .

٧ الشمري.

٨ الشمري.

٩ الجُبيلي، نظرَات في كتاب الله، ج١، ١٢ .

١٠ الشمري، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، ج٦، ٤٦٨ .

الاجتماعية في مسيرة الرسول الكريمة، فتقول:لقد كانت خطة النبي فعّالة في دمج عناصر المجتمع الجديد في أخوة في الله عزوجل، تنصهر فيها كلّ الفوارق في النسب والغنى والفقر، لقد أصحبوا جسداً واحدا « إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [١١] .

وفي موارد أُخرى من تفسير ماجدة فارس الشَّمَّرِي استعرضت السّيرة المحمّديّة من خلال طرح الأنموذج المسلم، فبعد أن قدّمت ضرورة الاعتراف بالإنسان الآخر من حيث الأصل بالخلق والرجوع في الوعي الإسلامي، تتدرج في الإقرار بضرورات أخرى يمكن اختزالها في الوجود الاجتماعي فيما بين المسلمين، مثلا التآلف والتأخي والودّ والمحبّة، من ذلك ما ورد في تمثلات الوصايا النبويّة التي ساقتها المفسّرة في توضيح آية الأنفال قوله تعالى:﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، (الأنفال، ٦٣) ، وصية الرسول ﷺبقوله:الْمُؤمِنُونَ بَعضُهُم لِبَعضٍ نَصَحَةٌ متوادون وإن افترقت مَنازِلُهُم وأبدانُهُم، والفَجَرَةُ بعضُهُم لِبَعضٍ غَشَشَةٌ مُتَخاذِلونَ وإن اجتمعت مَنازِلُهُم وأبدانُهُم [١٢]، ثم تورد حديثاً نبوياً في المضمون نفسه، قوله ﷺ :إِنَّ مِنْ عِبَادِ الله لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ الله تَعَالَى قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ :هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ الله عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ،وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا،فَوَ الله إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ، لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ ... [١٣]، ثم تروي المُفسّرة وصية عن رسول الله ﷺ تحاكي الأخوة وروائعها، قوله ﷺ :إنَّ المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتّت ذنوبهما كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريحٍ عاصف،وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار [١٤] . يُلاحظ أنَّ نصوص السيرة هنا تتجاوز الأبعاد الفردية إلى الجماعيّة ذات ثقافة تحكم سلوك أفرادها وتنظم عملياتهم النفسيّة والاجتماعية؛ لذا فإنَّ هذه المضامين قد أفاضت السّنة في سردها، كما أفاض القُرآن الكريم في تثبيت دلالاتها الثقافية ؛ بوصفها خلفية دينيّة تشريعيّة من جهة، وتوجيهاً اجتماعياً من جهة أُخرى .

١١ لحام، هدي السّيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، ١٧٠ .

١٢ الشمري، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، ج٥، ٤٤١ .

١٣ الشمري.

١٤ الشمري.

المبحث الثاني

المرجعيات النقْليّة

يُشكّل المرجع النقلي واحداً من الأبواب الثابتة في جلّ حقول التفسير ومناهجه، ومن ثم فهو يُجسّد في خلفياته الثقافية إثراءً بالغ الأثر في المدونة التفسيرية، لذا فهي تستخدم بوصفها ذاكرة إسلامية لما تتضمنه من المرويات والخطابات والوصايا على مختلف المجالات التي تعدّ الإطار المرجعيّ للهوية المسلمة. ولقد اضطلعت هذهِ المرجعيّة بدور كبير في توجيه الجهود التفسيرية اتّجاه النصّ الكريم عامّة، واتّجاه السّيرة النبوية خاصّة. ومن المرجعيات التي تمثّل المحرّكات الأساسية للمفسّر في علاقته مع الخطاب القُرآنيّ :

أولاً : السّنة النبويّة

ففي قوله تعالى : ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(التوبة : ٨٨)، تولي المُفسّرة ماجدة فارس الشمري اهتماماً لمرجعية ثقافية عندما استحضرت أثراً نقلياً يُجسّد سياقاً من وصية الرسول الأكرم ﷺ ضمن خطبة -حجّة الوداع- له، إذ تضعها ضمن ثلاثة اقتباسات، تعلّق من خلالها دلالة السيرة في النصّ القُرآنيّ، منها قوله ﷺ :أوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الثمار؟ ألم يوسعوا عليكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم؟ وبهم الخصاصة [١٥]، وقوله ﷺ في المهاجرين:أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وإنّما أوصي بهذا الأمر قريشاً [١٦]، ثم قوله ﷺ بعد حجّة الوداع:أني بين أيديكم فرط وأنا شهيد عليكم، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، ألا وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ... [١٧] . فقد استرعت المفسّرة في وقوفها عند النصّ القُرآنّي -الذي يحكي جانباً من

١٥ الشمري، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، ج٦، ص١٥١ .
١٦ الشمري.
١٧ الشمري.

سيرة الرسول ﷺ في إحدى غزواته- الأصل النقلي الذي يمثّل في أصله مصدراً تالياً بعد القُرآن الكريم في المنزلة والتوثيق في الاعتبار التفسيري . فإنّ سياق مرجعية المُفسّرة الثقافية في طرحها نصّ السّيرة النقلي تفسيراً لنصّ السّيرة القُرآني ذات تأثير مزدوج ،فمن ناحية إن أنموذج السّيرة هو بمنزلة أطر استيعاب، وإدراك، وعاكسات رمزية يمكن من خلالها تفسير التجربة الدينية. ومن ناحية أخرى فإنَّ تفسير نصّ السّيرة القُرآنيّ من خلال السّيرة نفسها؛ يتضمّن نسقاً واحداً؛ كونهما محكومين بمصدرن مقدّسين إلهي ونبوي، فمرجعية النقل عن رسول الله ﷺ مرجعيّة احتكم إليها المرجع التفسيري عامّة، إذْ ورد عن السيوطي،يقول:النَّقْلُ عن النَّبيِّ ﷺ ، وهذا هو الطِّرَازُ المُعَلِّمُ ... [١٨]، سبقه ابن كثير بقوله: الغرض أنَّك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السّنة [١٩]، فمن جهة أنَّ نصّ السّيرة القُرآني صياغته إلهيّة لا بشرية، ومن جهة أخرى فإن نصّ السَّيرة الخطبة، دال تاريخي وواقعي .

وهنا - بالضبط- يكمن مدار اهتمام أي مفسّرة ذات طابع مرجعيّ، لأنَّها تنطلق من بديهيّة كون النصّ النبويّ يعرض النصّ القرآني بشكله الحقيقي الملموس، من هنا قد يكون استشهاد المفسّرة بحديث الرسول ﷺ خطبة أو وصية، لبيان معنى الآية وتوضيحها، كما قد يكون لضرب المثل بالحديث الشريف المقرّب لمقصود الآية ومعناها. كما قد يكون - كذلك- لزيادة الأنس والإمتاع، ببيان تعانُق الحديث الشريف والآية الكريمة حول المعنى المطروح في الآية القُرآنية [٢٠]، وبهذهِ المرجعيّة جسّدت بعض المفسّرات اطروحاتهن اتّجاه نصّوص السّيرة المحمدّيّة، ومن تلك المُفسّرات المفسّرة نورية ناصر، فبالرغم من اعتمادها على المنهج الإيضاحي المبسّط دون الولوج في تأويلات المفسّرين واختلافهم، كان طرحها للنصّ النبوي في توضيح نصّ السّيرة القُرآنيّ لأجل أنْ تعطي للنصّ قيمته الإسلامية التي أبرزها خطاب القُرآن في أنموذج الرسول محمد ﷺ، فترجع في نصّ السّيرة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم :٤)، إلى مجموعة من الوصايا

١٨ السيوطي، الإتّقان في علوم القُرآن، السيوطي، ج٤، ٢٠٧ .

١٩ الدمشقي، تفسير القُرآن العظيم، مقدّمة التفسير، ج ١، ٤.

٢٠ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، مقدّمة الكتاب، ج١، ٨.

المحمّديّة، فبعد أن بيّنت مراد النص العام بلغة سهلة، من أنَّ رسول الله يمتلك خلقاً لا نظير له من لطف واستقامة وتحمّل وتجسيد لمبادئ الخير [٢١] تنقل وصاياه ﷺفي خصلة الخير، كقوله :إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار ، وقوله ﷺ :ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن [٢٢]، فمدلول استشهاد المفسّرة بأقوال الرسول يُوعز بالمبادئ الإسلامية التي أكدها الله تعالى ثم رسوله محمد ﷺمن ربط جانب الأخلاق بميزان العمل الصالح، والبرنامج العبادي عند الفرد المسلم ؛ لذا فإن مرجعيتها في توجيه نصّوص السّيرة القُرآنية كان توجيها انتخابياً، أي ترشد إلى معناها وتوّضحه من تعبير السّنّة النبويّة نفسها، لاسيّما أنّها تذكر ذلك في مقدّمة تفسيرها، قائلة :... ولم أترك ما يدعم تلك المعاني والمضامين من الأحاديث والروايات التي جاءت عن رسول الله ﷺ وآله الميامين عليهم السلام وذلك للمزيد من البيان والتوضيح[٢٣].

ثانياً :المُفسّرون

إن ربط تفسير الكتاب بأقوال أرباب التفسير ومناهجهم، مردود ثقافةتأثّر و تأثّر، ومن ثم فهذه الثقافة تعدّ قول التابعي شاهداً ومؤيّداً. إذْ إنَّ مرجعيّة المُفسّرةزَيْنَب الغزالي الجُبيلي نتاج لهذهِ الاعتبارات التي ترى من خلالها نماذج سيرة الرسول الأعظم ﷺ ، لاسيّما وهي تقول :وأخذت أراجع في السَّنّة ما وسعني جهدي، فهي خير مفسّر لكتاب الله عزوجل ، وكلّ من كتبوا في التفسير من علمائنا الأفاضل كانوا يحومون في رحابها وينهلون من معينها [٢٤]، ومن جملة ما تزوّدت به في أثناء وقوفها على مواطن السّيرة النبوية الشريفة – كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(آل عمران: ٣١) قراءة ابن كثير، إذ يقول:هذهِ الآية حاكمة على كلّ من ادّعى محبّة الله وليس هو على الطريقة المحمّدية، فإنّه كاذب على دعواه في نفس الأمر،حتى يتبع الشرع المحمّدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في

٢١ ناصر، التفسير الواضح اليسير، نورية ناصر، ج١، ٦٧٠ .
٢٢ ناصر.
٢٣ ناصر.
٢٤ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، مقدّمة الكتاب، ج١، ١٢.

الصحيح عن رسول الله ﷺ: – من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ – [٢٥]، كما أنَّ المفسّرة في الموضع نفسه من الآية تنقل عن ابن كثير ما نقله من السلف، فتقول: وقال الحسن البصري وغيره من السلف» زعم قوم أنهم يحبّون الله فابتلاهم الله بهذهِ الآية» [٢٦] [٢٧] فمرجعية المفسرة ذات طبيعة مزدوجة ما بين التراث النقلي وما حكاه السلف في تفسير النصّ القرآني للسيرة النبويّة، وهي مرجعيّة مقبولة لدى الجميع، قد أكّدتها في بداية تفسيرها، قائلة: إنَّ كتاب الله هو كلمته الأخيرة على خاتم رسله محمد ﷺ [٢٨]. ومن جانب آخر فإن الأخذ برأي التابعي، هو من التفسير بالمأثور، وطريق رابع يسلكه المفسّر، وبالطبع انّ التابعين هم أمس جانباً بأحاديث الرسول والعلماء من صحابته الأخيار، وكانوا أقرب فهماً لمعاني القُرآن الكريم؛ حيث قُربهم بأصول معاني اللغة الفُصحى غير المتحوّرة، الباقية على صفوها الأوّل، كما كانت الحوادث والوقائع المقترنة بنزول الآيات ... [٢٩]، ومن الجدير بالذكر، أنَّ التفسير الذي حاكته المفسّرة في قراءة نصّ السّيرة، هو من التفاسير التي حسبت على جانب المصداقية والوثوق؛ لكونه أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، بل من أجوده؛ حيث اعتنى فيه مؤلّفه بالرواية عن مفسّري السلف، ففسّر كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندةً إلى أصحابها ... [٣٠]. من هنا صّرحت المفسّرةزَيْنَب الغزالي الجُبيلي، قائلة: تزوّدت من زاد علمائنا السابقين ممّن توفّروا على تفسير كتاب الله، فتتلمذت على القرطبي في تفسيره وعلى الحافظ ابن كثير وعلى الآلوسي وأبي السعود والقاسمي ... [٣١].

٢٥ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، مقدّمة الكتاب، ج١، ١٢.
٢٦ الجبيلي.
٢٧ الآلوسي، تفسير القرآن العظيم، ج١، ٣٦٦.
٢٨ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، مقدّمة الكتاب، ج١، ١١.
٢٩ معرفة، التفسير والمفسّرون في ثوبه القشب، ج٢، ٥٤٤.
٣٠ معرفة.
٣١ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، مقدّمة الكتاب، ج١، ١٢.

المبحث الثالث

المرجعيات التاريخية

يُقّدم التراث أو المرجع التاريخي للفرد في كُلّ العصور، ولدى كلّ الأمم مادّة ثرية خصبة، ومصدراً سخياً من مصادر الإبداع، بوصف أنَّ المعطيات التراثية تكسب لوناً خاصاً من القداسة في نفوس الأمة ونوعاً من اللصوق بوجدانها، لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة، فالكاتب حين يريد الوصول إلى وجدان أمته بطريق توظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توسل إليه بأقوى الوسائل تأثيرا فيه [٣٢] . والمُفسّر حين يستشفع قراءته لنص السّيرة القُرآنية من حدث أو واقعة تاريخية أو غزوة أو خطبة أو أي نصّ يحمل واقعاً تاريخياً لاشكّ أن ذلك يضفي – بملامحه المقدّسة – حدّ الاتّحاد والامتزاج بها. فوقائع السيرة النبوية؛ بوصفها مرجعاً تاريخياً هي مرآة تنعكس عليها النفس المقدسة بما ورثته من السماء ونورها الرباني، ومن ثم إنّ توظيف المُفسّرة لنصّوص السيرة النبويّة والانطلاق بقراءتها من مرجعيّة تاريخية ليست ظواهر كونية عابرة، وإنَّما لما تحتويه من شمولية قابلة للتجدّد والبقاء على امتداد التاريخ .

فعند وقوفنا على نصّوص السّيرة عند المرأة المُفسّرة نجدها قد استدعت المرجعيات التاريخية بشكل لافت، وقد كان هذا الاستدعاء ينماز بالطابع الجمالي في توظيف هذهِ الشخصية العظيمة ودورها في الحياة العامّة ؛ لتعكس مرايا دلالية بما يتلاءم مع رؤيتها لتراث السيرة، ومن ثم لتسعفها في إيصال التجربة الراهنة إلى المتلقي لأنّ اللغة الاعتيادية لا تُبلغ الغاية في احتواء التجربة لهذا جاءت الاستعانة بالرمز المحمدّي لإضفاء نوع من الحركة وإغناء النصّ بالخزين الإيحائي وإحداث الأثر في قلب المتلقي[٣٣] .

ففي قراءة للمفسّرةفاطمة كريمان حمزة لنصّ السيرّة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا

٣٢ زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ١٦.

٣٣ الناصر، إيمان عيسى، وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر، ٢٧٧.

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(التوبة : ١٢٢) ، تستجلي المفسّرة هنا السيرّة بسرد تايخي، درست فيها الروايات بوجهة نظر تاريخيّة مضمونية مجزأة، بدءاً من الآيات التي تحكي حادثة عزوة تبوك المدرجة في الآيات من١١٨ -١٢٢ من سورة التوبة، فتتبع في مرجعيتها عند طرح عينات السّيرة النسق المعتاد عند جمهور المفسّرين، وهو أن معرفة نزول الآية هي أوفى ما يجب الوقوف عليها... لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ... [٣٤] لكن المفسّرة تضفي عليه اللسمة الخاصّة بمنهجها التفسيري، لاسيّما أنّها اعتمدت في تفسيرها هذا أهمّ مصادر السّيرة كالسيرة النبوية: ابن اسحاق»ت:١٥١هـ»، والسيرة النبوية : ابن هشام «ت٢١٣هـ» ومن المصادر الحديث فقه السيرة: محمد الغزالي « ت١٤١٤هـ ، فضلاً عن ذلك فهي تتبنّى في قراة النصّ -هنا - مرجعيّة ذات آيديولوجيات عصرية،إذْ تحاول أنْ تسندَ دور العرب عند مرورها بسيرة الرسول ﷺ على أساس تأويل عصري فتقول: لم يكن في عصر الرسول ﷺ جيش نظامي، تقوم الدولة بتدريبه، وإمداده بالسلاح، وتصرف له معاشاً. وفي الحقيقة لم تظهر سمات الدولة الحديثة التي نعرفها اليوم إلا منذ قرنين أو ثلاثة [٣٥] *، بيد أن ثمة التباساً في قولها، إذْ إنَّ مؤلف كتاب قصة الحضارة يثبت عكس رأيها، بأن رسول الله ﷺ أسس دولة العرب... استطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوّة ذات خطر عظيم في نصف العالم[٣٦] .

ثم تنقل المفسّرةكريمان حمزة سرديات الحدث لاسيما المتعلق بإحدى جزئيات غزوة تبوك كانموذج واقعي للسيرة، فتقول في نص يطول طرحه، نقتصر فيه على مقتل الاحرث بن عمير الأزدي عندما أرسله النبي محمد ﷺ إلى عظيم بُصرَى، فتقول:كان لغزوة تبوك أهميّة كبرى، فقد قتل والي الروم على البلقاء في الشام رسول رسول الله ﷺ الذي ذهب

٣٤ الواحدي، أسباب النزول، ٤.

٣٥ حمزة، اللؤلؤ والمرجان في تفسير القُرآن، ج٢، ١٦.

٣٦ ديورانت، قصة الحضارة، ج١٣، ٤٧ .

* من الجدير بالذكر، ليس الكلام بصدد تقديم النقد بخصوص وجهة النظر للمرأة المفسّرة، بل هو تقديم مرجعية المرأة المفسّرة في قراءة نص السيرة النبوية في تفاسيرهن .

ليسلمهم كتابه الذي يدعوهم به للإيمان ... ثم بعدها جاءت الرسول ﷺ أخبار بأن الروم يعدون العدة لاستئصال المسلمين في المدينة، فطلب من الجميع الخروج معه، فهناك مهام متعددة على المسلمين القيام بها بجانب القتال [٣٧] .

إنّ نصوص السيرة خطباً ووصايا نصّ شرعي يدور في محوره حول مبدأ جنس النقل، وبما أنَّ دلالة النصّ هي جزء من نظمه وماهيته، تقودنا المفسّرة زَيْنَب الغزالي الجُبيلي إلى نصّ من سيرة الرسول الأعظم في غزوة أُحد من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران : ١٢١-١٢٢) . وبالطبع المفسّرة تسند السّيرة إلى ماهيتها المقدّسة ؛ لتسرد الواقعة في ضوء حدثها الواقعي بدءاً من القُرآن والسنة والمفسرين بما نقلته عن ابن كثير، فتقول:هاتان الآيتان الكريمتان: تتحدثان عن غزوة أحد التي كانت في شوال سنة ٣ هـ وسببها: أنّ أهل مكّة لما قتل منهم من قتل من رؤوسائهم ونجت العير وقائدها أبو سفيان؛ قال أبناء من قتلوا لأبي سفيان : أرصد أموال هذهِ القافلة لقتل محمد ... وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير ... والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم ﷺ" ... الزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم" [٣٨] *، إذ نرى المفسّرة تتعامل مع نصّ السيرة على نحو من الدّقة إذ ترى فيها اتّصالًا دائمًا مع عالم الحقيقة ؛لأن أقوال الرسول أصل الوحي فيها يعني أن دراستها وتحليلها يحتاج لآليات وأنماط ومناهج ذات طبيعة خاصّة تتناسب مع طبيعة النقل التي ليست إلا شواهد تاريخية خاصّة لا تقبل البعد المجازي؛ لأنّ النقل يحمل صفات مطلقة يعرفها السامع عن طريق الاتّصال بمصدره الأصلي، فيدرك العارف بها كلّ المعاني التي يقصدها النصّ الشرعي [٣٩]، وعلى طريق هذا المبدأ

٣٧ حمزة، اللؤلؤ والمرجان في تفسير القُرآن: ج ٢، ١٦.

٣٨ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، ج١، ٢٤٥ -٢٤٦ .

٣٩ أبو عزب، سليمان عبد الله، خطاب النقد في النص الشرعي والنص الشعري بين الحقيقية والمجاز - النقد المقارن وتحولات المنهج، ضمن كتاب. تحولات الخاب النقدي، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر، (٢٥-٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦، ١٢٣٤ .

* ومن الجدير بالذكر أن المفسّرة نقلت أحداث معركة أحد عن ابن كثير في تفسيره، تفسير القُرآن العظيم، ج١، ٤٠٩ .

أشارت إلى القصة نفسها المفسّرة كريمان حمزة في كتاب خصصته لغزوات النبي محمد ﷺ ، فتقول :وعندئذ تحرّك في قلبِ الرُّماةِ حُبُّ الدُّنيا وجَمْعُ الأموالِ والرغبةُ في الاقْتِناءِ ...فَنَسُوا أمرَ رسول الله ﷺوغَفَلوا عن تشْدِيدِه بالاستمرار في المواقع .. وانغمسوا في جمع الغنائم [٤٠] ؛ ولذا تستخلص المفسّرةزَيْنَب الغزالي الجُبيلي من هذه السيرة الهدف التربوي، وهو أن الله عزّوجل أراد أن يلقن الأمة درساً ما كانت أن تتعلمه لو انتهت المعركة بالنصر للمسلمين لاسيما إذا كان هناك خرق في تقديم الطاعة لله ولرسوله إذ أسيء لهما عند من أوكلت لهم أوامر الرسول ﷺ [٤١] .

وفي سياق عدم طاعة الله والرسول تورد المفسّرة حنان لحّام نصًّا نبويًّا يحاكي نصًّا قُرآنيًّا يتساوق مع مضمون تاريخي في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(المائدة: ٥٤)، فتنقل المفسّرة في توضيح ذلك نصين من وصايا الرسول الأكرم ﷺ ، قوله : ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإيمَانِ: أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ[٤٢]، وقوله ﷺ: المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ [٤٣] . إن النصوص كما تعرضها المفسّرة كان تجسيدها ضمن مشكلة الردّة التي حصلت بالبيت الإسلامي . ولاشكّ أنّ المنطلقات الفكرية لدى الفرد المسلم تتطابق في كثير من الأحيان مع الآليات التي يعتمدها منهج السّيرة النبويّ، وهذا المنهج بالطبع هو تربية ذوقية ووجدانية تمسّ القلب والروح معاً؛ لذا فاتِّباع الرسول ﷺهو الطريق للحصول على حبّ الله... وحب الله أمر لا يوصف وإنما يحتاج إلى تذوّق. وعندها يمكن فهمه، وفهم معنى حلاوة الإيمان [٤٤]، من هنا فإن منهج الشعور مع خطابات الرسول ﷺبوصفها سيرة نبويّة ؛ ولكونها تقرّب المعنى البعيد للعقل البشري

٤٠ حمزة، سيد الخلق، (أُحد – الأحزاب – خيبَر)، ج ٤، ١٨ .
٤١ الجبيلي، نظرَات في كتاب الله، ج١، ٢٤٦ .
٤٢ لحّام ، تَأمُّلَاتٌ في سورة المَائدة، ١٠٢
٤٣ لحّام.
٤٤ لحّام .

وتجعله في متناول الحس والفهم والإدراك للمعنى الذي لا نملك منه إلا الوصف التقريبي [٤٥]، حتى تنتهي في تحليلها، وهذا يفصح عن دلالات توفيقية تكون فيها الغلبة دائماً للشعور البنائي الذي تتبنّاه السّيرة من أهداف تشريعيّة وتربويّة وعقديّة .

وفي نص منسورة النساء، آية ٣٤ استلهمت المفسّرة كريمان حمزة معاني خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع، واتّخذها مرجعاً تاريخياً، أفادت من لفظها ومعانيها في توظيف دلالة قوله تعالى: قوله تعالى :﴿... وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾، (النساء: ٣٤) ، ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ ...﴾ [٤٦]، فتقول :قال النبي ﷺ في خطبة الوداع، والتي أفرد للوصية بالمرأة جزءاً معتبراً منها : « لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإذا فعلن فأضربوهن ضربًا غير مبرح « ... وإذا كان لنا في رسول الله أسوة حسنة، بالفعل والقول، ماضرب أحدنا امرأته ... وقد جاء بالحديث:«خيركم خيركم لأهله» وقوله ﷺ« استوصوا بالنسّاء خيرًا »، وقال الامام علي عليه السلام: « المرأة ريحانة وليست قهرمانة» [٤٧] . فبغض النظر عن توظيف هذهِ السيرة في السياق الاجتماعي لحياة المسلم، إلاّ أن المعطيات التاريخية للسيرة جسّدت منطلقاً لمساءلة الواقع الاجتماعي، ومن ثم استعمالها لإدانة الحاضر من وجهة السيرة المحمدية، وعليه كان استحضارها هو تمجيد وإحياءٌ لها، بوصف أن للسنّة المطّهرة ثلاث مهام مهمة التفسير لكتاب الله (عزوجل)، ومهمة التفصيل للذكر الحكيم، ثم مهمّة التشريع فيما لم يرد فيه نصّ في القُرآن الكريم ... [٤٨] .

٤٥ أبو عزب، التخييل بين القُرآن الكريم والعهد القديم، ٦ .
٤٦ حمزة، اللؤلؤ والمرجان في تفسير القُرآن، ج١، ١٩٧.
٤٧ خولي، الحفاظ على أصول الإسلام وتطوير أدوات التعامل مع الواقع، ٩٠ .

المبحث الرابع

المرجعيـــّات اللغوية البيانية

إذْ يهتم المفسّر في هذهِ المرجعية في فهم لغة القُرآن بالتتبّع في جميع صيغ هذا اللفظ الوارد في القُرآن الكريم، ثم يخرج من ضمّ بعض إلى بعض بحقيقة المعنى اللّغوي الأصيل، وهو لا يترك هذا العمل حتى في أصح الألفاظ [٤٩]، ولعلّ خير من استندت إلى هذهِ المرجعية من التفسير البياني من النساء المُفسّرات الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» فهي من ابتكرت هذا المنهج – حسب ما تدعيه–، وهو عبارة عن استقراء اللّفظ القُرآني في كلّ مواضع وروده، للوصول إلى دلالته؛ وعرض الظّاهرة الأسلوبية على كلّ نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبّر سياقها الخاصّ في الآية والسورة، ثُم السياق العامّ في المصحف كلّه، إلتماساً لسّره البياني [٥٠].

وهناك جهة أساسية أُخرى تأتي ضمن تبنّى السّياق البياني، وهي أنّ علم البلاغة واحدُ من أهمّ الوسائط التفسيرية للوقوف على مراد النصّ القُرآني، فللأسلوب البياني الذي يحمله الخطاب القُرآني شأن إعجازي وسرّ إلهي .

وعند تناول نصّ من سيرة النبي الأكرم ﷺ في سياق المرجعيّة البيانية لهذهِ المفسّرة، نجدها تنطلق في ضوء ما يحتمله النصّ والسّياق بوصفها اعتبارات لفهم السّر البياني، فعندما تقرأ سيرة النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم :٤) تبدأ بما يذكره المفسّرون،ثم تعرضه على القُرآن الكريم من حيث السياق والنص لتحكم بردّه أو قبوله . فعندما أوردت قول الطبري في في تفسيروَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ بالدين وهو الإسلام وبقوله الآخر عندما ربطه بحديث عائشة أنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت كان

٤٩ مجموعة باحثين، التفسير البياني، مجلة رسالة القُرآن، ع١، دار القُرآن الكريم، إيران – قم،ط١، ١٤١١ هـ، ٣١ .

٥٠ عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقُرآن الكريم، « بنت الشاطئ»، مقدمة الكتاب، ج٢، ٧.

خلقه القُرآن [٥١] . إلا أن المفُسرة ترى هذهِ التأويلات بعيدة من جهتين: من جهة السّياق أن الآية مكية مبكرة من أوائل الوحي، ولم يكن قد نزل من القُرآن الكريم ما تُعرف به القِيَمُ الخلقية القُرآنية ... [٥٢]، ومن جهة أُخرى النصّ ليس في القُرآن كله ما يؤنس استعمال الخلق بمعنى الدين ... [٥٣] فضلًا عن ذلك النص لا يحتمل كل هذهِ التأويلات التي ذهب إليها الطبري، فالنصّ تقرير إلهي يشهد بعظمة خلق محمد ﷺ ويتوج به ما كان معروفاً من مكارم أخلاقه ويمنحه القوة على مواجهة المكذبين والطاغين فخلق محمد ﷺ ثقافة مكنوزة في الثقافة العربية سواء قبل البعثة أو بعدها ولم تكن مرتبطة بنزول القُرآن عليه، ومن هنا كان تعليق بنت الشاطئ بتخصيص السياقات كافة الاجتماعية والثقافية والدينية في توجيه هذا النصّ من السّيرة،تؤكِّد هذهِ الآية ما علم الله من خُلق نبيه المصطفى ﷺ ، وقد كان منذ صباه معروفاً في قومِه بسموّ خلقه، كما كان في شبابه فتى قريش أمانة وصدقاً ونبلاً وعفّة أو كما قال عمه أبو طالب ﷺ « في خطبة زواج محمد من السيدة خديجة بنت خوليد عليها السلام: أما بعد فإنّ محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً [٥٤]، ومن هنا فإنَّ القُرآن الكريملم يَقلب اللغة في أوضاعها المفردة عن أصولها،ولم يُخرج الألفاظَ عن دلالتها ... وكذلك لم يقضِ بتبديل عادات أهلها، ولم ينقلهم عن أساليبهم وطُرُقهم ولم يمنعهم ما يتعارفونه من التشبيه والتمثيل والحذف والاتساع[٥٥] .

٥١ عبد الرحمن، عائشة، التفسير البياني للقُرآن الكريم، « بنت الشاطئ»، مقدمة الكتاب، ج٢، ٥٠ -٥١ .
٥٢ عبد الرحمن .
٥٣ عبد الرحمن .
٥٤ عبد الرحمن .
٥٥ الجرجاني، أسرار البلاغة، ٣٩٤ .

الخاتمة

بعد الوقوف على المرجعيات الثقافية في تفسير المرأة لنص السّيرة المحمّدية، ظهرت للبحث النتائج الآتية:

قد شكّلت السّيرة النبويّة الشريفة في تفسير المرأة مساحة كبيرة، فكانت محلاً للاستشهاد بها على مختلف الأصعدة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فضلاً عن أحكام الدين الإسلامي وشرائعه. ومن ثم وجد فيها القارىء سياحة دينيّة – ثقافية في التراث ونصّوصه.

و جسّدت السّيرة النبوية الشريفة انعطافاً آخر اتّجهت إليه المفسّرة خارج المحط التفسيري، فوضعت في السّيرة مؤلفات تناولت غزوات النبي ﷺ أو حروبه أو قصصه مع الأصحاب أو رسائله إلى ملوك الديانات الأُخرى. مثل المفسّرة كرمان حمزة، وحنان لحّام .

انطلقت المرأة المفسّرة في طرح نصوص السيّرة من إطروحات فكرية متنوّعة اتخذتها بحسب سياق النصّ القُرآني الكريم ومقامه، وممّا لا شكّ فيه أنّ المفسّرة في الأطروحات قد تأثرت بشكل مباشر أو غير مباشر بمن استندت إليهم في منهج التفسير من المفسّرين سواء من القدماء أو المحدثين.

بعض المفسّرات اتّخذت من الروايةالحديث أو التاريخ عن الرسول محمد ﷺ مرجعيّة متبنّاة في تفسير أغلب نصوص السّيرة الواردة، فتميّزت عندها نصوص السّيرة القُرآنيّة ؛كونها فُسّرت من خلال السيّرة النبويّة نفسها . بغض النظر عن مصدر هذهِ الروايات أو صحة سندها.

كانت بعض المرجعيّات عند المفسّرات متبعة المنهج المقارن مع بقيّة الأحكام أو التشريعات في الديانات الأُخرى لا سيّما في المضامين الاجتماعية التي سلكلها الرسول محمد مع أمته مثل المرأة ومقامها في الإسلام .

المصادر

القُرآن الكريم

السيوطيت؛ جلال الدين:٩١١ هـ، الإتّقان في علوم القُرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر:الهيئة المصريّة العامّة للكتاب،ب.ط ، مصر،١٩٧٤ م.

النيسابوري ؛ علي الواحدي، أسباب النزول، مؤسّسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع وب.ط، القاهرة - مصر، ١٩٦٨ م .

زايد؛ الدكتور علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي،ب.ط ، القاهرة - مصر، ١٩٩٧ م .

الجرجاني؛ عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني،ب.ط، القاهرة -مصر،ب . ت .

لحّام؛ حنان، تَأمُّلَاتٌ في سورة المَائدة، تقديم : جودت سعيد، دار آفاق والأنفس، ط١، دمشق- سوريا، ١٩٩٣ م.

أبو عزب؛ التخييل بين القُرآن الكريم والعهد القديم، مطبعة المقداد،ب.ط غزّة - فلسطين، ١٩٨٨م.

عبد الرحمن؛ الدكتورة عائشة، التفسير البياني للقُرآن الكريم، » بنت الشاطئ«، الناشر: دار المعارف، ط٥، القاهرة،ب.ت .

الدمشقيت ؛ أبي الفداء ابن كثير: ٧٧٤هـ، تفسير القُرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع،ب.ط، بيروت -لبنان، ١٩٩٢م .

ناصر؛ نورية، التفسير الواضح اليسير، العارف للمطبوعات، ط١، بيروت -لبنان، ٢٠١٥م.

معرفة؛ محمد هادي، التفسير والمفسّرون في ثوبه القشيب، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلاميّة، ط٢، مشهد - إيران، ١٤٢٦ هـ .

الشَمّرِي؛ ماجدة فَارِسْ عبد الرزاق، التوضيح والبيان في تفسير آي القُرآن، دار النُّور للدراسات والنشر، ط١، عمان- الأردن، ٢٠١٣م .

خولي؛ بسيوني محمد، الحفاظ على أصول الإسلام وتطوير أدوات التعامل مع الواقع، الناشر: بسيوني محمد الخولي، ط١، ٢٠٢٠ م.

خطاب النقد في النص الشرعي والنص أبو عزب ؛ الدكتور سليمان عبد الله، الشعري بين الحقيقة والمجاز - النقد المقارن وتحولات المنهج، ضمن كتاب تحولات الخاب النقدي - مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر٢٥-٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦،جامعة اليرموك، عالم الكتب الحديث، ط١، عمان - الأردن، ٢٠٠٨ م .

الآلوسي ؛ شهاب الدين محمود ت:١٢٧٠ هـ ، روح المعاني في تفسير القُرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق : علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت -لبنان، ١٤١٥ هـ .

حمزة ؛ كريمان، سيّد الخلق أُحد- الأحزاب- خيبر، دار الشروق، ط١، القاهرة - مصر، ١٩٩٥م.

البدري؛ سامي، السّيرة النبويّة- تدوين مختصر مع تحقيقات وإثارات جديدة-، تحقيق: حسين البدري، وإحسان المظفّر، دار الفقه للطباعة والنشر، ط٣، إيران - قم،٢٠٠٥ م .

ديورانت؛ ول وابرل، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران،دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع،ب.ط،

بيروت- لبنان، ١٩٨٨ م .

حمزة ؛ كريمان، اللؤلؤ والمرجان في تفسير القُرآن، مكتبة الشروق الدولية ط١، القاهرة - مصر، ٢٠٠٩م.

الجُبيلي؛ زَيْنَب الغزالي، نظرَات في كتاب الله، مراجعة وتقديم : د. عبد الحي الفرماوي، دار الشروق، ط١، القاهرة - مصر، ١٩٩٤م .

حمّام ؛حنان، هدي السّيرة النبويّة في التغيير الاجتماعي، دار الفكر، ط١، دمشق -سوريا، ٢٠٠١.

الناصر؛ الدكتورة إيمان عيسى، وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت -لبنان، ٢٠١١.

الدوريات :

التفسير البياني، مجموعة باحثين، مجلة رسالة القُرآن، العدد :١، دار القُرآن الكريم،ط١، إيران - قم، ١٤١١ هـ .

شبكة الانترنيت :

علم المغازي يحظى باهتمام باحثي السيرة النبويةالمدينة المنورة ، خالد الزايدي، مقال نت، الرياض،الأربعاء ١٢/ محرّم، ١٤٤١ هـ، ١١/ سبتمبر، ٢٠١٩ هـ . https://www.alriyadh.com